هينى ودون كيشوت

٣

يروى عن ملك فرنسا المتعاظم الفخم لويس الرابع عشر أنه سأل مرة أحد رجال بلاطه قائلاً له «أتعرف اللغة الإسبانية ؟» .

فأجابه الرجل «لا يا مولاى ، ولكنى سأشرع فى تعلمها» .

وأقبل الرجل على دراسة اللغة الإسبانية لأنه ظن أن الملك يريد أختياره سفيراً فى البلاط الإسبانى ، وبعد فترة من الزمن قال الرجل مخاطبا الملك « مولاى لقد تعلمت اللغة الإسبانية» .

فأجابه الملك «حسن جداً ، إنك تستطيع الآن قراءة دون كيشوت فى لغتها الأصلية» .

ورواية دون كيشوت التى أشار إليها هذا الملك المتأدب ونوه بها طرفة من طرائف الأدب العالمى الخالدة ، وأعظم الآثار الأدبية التى أخرجها الأدب الإسبانى .

وقد ظفر هذا الكتاب بالشهرة الواسعة ، وارتفع إلى المكانة السامية بين الكتب الأدبية المأثورة فى حياة مؤلفة ، وترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، وأصبح عنوان الأدب الإسبانى وممثله بين الأمم .

وشخصية دون كيشوت من الشخصيات المحبوبة التى نعطف عليها ونؤثرها لنبل غايته ، وسلامة طويته ، وقد تضحكنا حماقاته وأوهامه ، وتسرنا سخافاته

واندفاعاته ، ولكنه ضحك يتخلله تساقط الدموع ، وسرور يشوبه الحزن والأسى .

وقد جرب مؤلف الكتاب – سرفانتيز – الفقر والحرمان ، وبخشم الصعاب ، وركب الأهوال ، واستهدف للأخطار ، وعرف السجن والتشريد ، وعانى الجوع والجروح ، ومن هذه التجارب الأليمة المرة أفاد هذا الفهم للحياة النفاذ الهادىء الساخر ، وهذا الفهم الساخر هو أساس هذه القصة الممتعة النادرة .

ورواية دون كيشوت من أشجى قصص المخاطرات فى التاريخ العالمى ، وتبرز فيها شخصيتان فاتنتان ، وهما شخصية دون كيشوت ، وشخصية تابعه سانكو بانزا .

وهذان الرجلان يسحر اننا لأن فى كل منا جانباً من دون كيشوت وجانباً من سانكو بانزا ، وكل منا مزيج من الإثنين ، وبطبيعة الحال يتغلب فى أكثرنا جانب سانكو بانزا على جانب دون كيشوت ، ويكاد يخفيه ويمحوه .

وصوت سانكو الذى يدوى فى نفوسنا هو صوت الحذر وطلب السلامة ، والجرى وراء المصلحة واغتنام الفرص العارضة ، وأكثر الناس لا يحبون أن يكسر لهم ضلع من الأضلاع أو أن تنهال عليهم الطعنات والصفعات ، أو أن يسلب مازرت عليه جيوبهم ، وهو النصيب الذى تدخره الدنيا لأهل الشجاعة والإقدام والبطولة والصراحة الذين لا يقبلون أن ينحنوا للعاصفة ، ولا يرتضون أن يقبلوا اليد التى قد يعجزهم قطعها .

وأكثر الناس يخشون السخرية بهم والاستهزاء أكثر مما يخشون الفقر والحرمان وتكسير الضلوع ووقع الصفعات وظلام السجون وقسوة الأغلال ، ولكن كلامنا مع ذلك فى نفسه دون كيشوت المكبوت المعتقل فى طبائعنا ، وهذا الدون كيشوت رهن المحابس والمقيد بالأصفاد والأغلال يعجب من وراء

القضبان بالنبل والشجاعة والإقدام على جلائل الأعمال ، ويكبر مواقف البطولة ومشاهد التضحية .

وقد يسخر الناس بدون كيشوت . ولا يكتفون بتركه يعانى مرارة الإخفاق وآلام الجروح والطعنات ، ولكنهم مع ذلك يحبون أن يلبوا دعوته ويستجيبوا لندائه ، ولكنهم يتبعون سانكو بانزا لأنهم يؤثرون الراحة وتجنب الأخطار ويخشون أن يسخر بهم ، ويضحك منهم ، ويرموا بالجنون والهوس ، وهم برغم ذلك يظلون يضمرون الإعجاب بدون كيشوت ، ويحبونه ويعطفون عليه ، ويؤلمهم مصابه ، ويشجيهم مصرعه .

وقد قرأ هذا الكتاب هينريك هينى فى أول نشأته ، فبلغ منه وأثر فى نفسه ، ويشير الكتاب الذين عنوا بدراسة حياة هينى إلى ثلاثة كتب كان لها فى نفسه أعمق الآثار وأبقاها ، وهذه الكتب الثلاثة هى رواية دون كيشوت والرحلة العاطفية لستيرن ورحلات جلفر لسويفت .

وقد حدثنا هينى نفسه عن الأثر الذى تركته فى نفسه رواية دون كيشوت فقال[1] « أول كتاب قرأته حينما أصبحت غلاماً ناشئاً يقوى على الفهم ويستطيع القراءة هو « حياة الفارس الأريب دون كيشوت دى لامانشا وأعماله » الذى كتبه ميجويل سرفانتيز دى سافدرا . وإن أنس من الأشياء لا أنس ذلك العهد حينما تسللت بكرة من الدار استرق الخطى إلى ساحة الحديقة لأقرأ دون كيشوت دون أن أستهدف للإزعاج ، وكان اليوم من أيام شهر مايو الحسان ، كان الربيع الناضر يستدفىء فى ضوء الصباح الصامت مصغياً لإطراء هذا المتملق العذب ، الهزار ، الذى كان يغنى فى رقة ولطافة وفى حماسة مؤثرة جعلت أشد البراعم خفراً تتفتح وتزدهر ، وجعلت الأشجار والأزهار تهتز من نشوة

(١) صفحة ٢٤٣ / ٢٦٧ من كتاب نثر هينى .

الطرب ، ولكنى جلست على مقعد حجرى قديم قد علاه الطحلب فيما يسمى «طريق التنهدات» القريب من منحدر المياه ، وأخذت أغذو قلبى الصغير بمخاطرات الفارس الجرىء التى تهز النفس وتثير الخاطر . وجعلتنى براءة الطفولة آخذ كل شىء مأخذ الجد ؛ ومهما كانت النكبات التى كانت تصيب هذا البطل البائس مضحكة فإننى كنت أعتقد أنها يلزم أن تكون كذلك ، وكنت أتخيل أن السخرية بالإنسان والضحك منه جزء من البطولة مثل ما يصيب البطل من الجروح والطعنات ، وكانت السخرية تثير غضبى كما كانت الجروح التى تصيبه تحزن قلبى ، كنت طفلا لا يعرف شيئاً عن السخرية التى بثها الله فى الدنيا والتى حاكاها الشاعر الكبير فى عالمه الصغير ، وبكيت بكاءاً مراً حينما وجدت أن الفارس النبيل لم يجن سوى إنكار الجميل والضربات والصفعات ، ولما كنت حينذاك غير متدرب على القراءة لذلك كنت أنطق كل كلمة بصوت مرتفع ، وكانت الأطيار والأشجار والجداول والأزهار تسمع كل ما أقرأ ، ولما كانت هذه الكائنات البريئة مثل صغار الأطفال لا تعرف شيئاً عن سخرية الدنيا فهى كذلك أخذت المسألة مأخذ الجد ، وشاركتنى فى البكاء على أحزان الفارس المنكوب ، وبلغ التأثر بأحدى شجرات البلوط التى طال عليها الزمن إلى حد أنها نشجت وانتحبت ، وهز منحدر المياه لحيته البيضاء هزاً عنيفاً ، وبدا لى أنه يبكى على الدنيا شرورها ، وشعرنا بأن بطولة الفارس ليست أقل استحقاقاً للإعجاب لأنه انسحب من الميدان ، وأنه إذا كان جسمه ضعيفاً هزيلاً وكان سلاحه قد علاه الصدأ وكان فرسه هجيناً حقيراً فإن ذلك يجعل أعماله أخلق بالثناء وأجدر بالتقدير ، وازدرينا الغوغاء الذين أمعنوا فى ضربه وإيذائه بقسوة ووحشية واحتقرنا احتقاراً أشد من ذلك هذا الصنف من الغوغاء الأسمى ، طبقة الذين كانوا يرفلون فى الحرير ويحملون الألقاب الضخمة ويسخرون

بالرجل الذى كان أسمى منهم عقلا وأنبل نفساً ، وكنت كلما مضيت فى قراءة الكتاب ازداد قدر فارس « دلشينا » ارتفاعاً فى نظرى وتزايد حبى له وتعلقى به ، ولبثت مثابراً على ذلك أياماً فى الحديقة نفسها ، فلما أقبل الخريف كنت قد وصلت إلى نهاية الكتاب . . . ولست أنسى يوم قرأت عن المعركة المحزنة التى خرج منها البطل يجرر أذيال الهزيمة الشائنة . . . كان يوماً عبوساً ، وكانت السحب القاتمة تنساب فى سماء غبراء ، وكانت الأوراق الصفراء تتساقط من الأشجار فى حزن وأسى ، وكانت قطرات الدموع المثقلة معلقة على آخر الأزهار التى أمالت رؤوسها الصغيرة الميتة ، وكانت البلابل قد ماتت منذ زمن طويل ، وكانت صور الفناء تطالعنى من كل ركن ؛ وكاد قلبى ينفطر وأنا أقرأ كيف انطرح الفارس النبيل على الأرض مثخناً بالجراح مهشم الأضلاع ، وقد أخذ يقول فى صوت خافت واهن كأنه مقبل من القبر « دلشيناهى أجمل فتاة فى العالم ، وليس من اللائق أن يبطل هذا الحق ضعفى – فاطعن برمحك يا سيدى الفارس » .

« فوا أسفاه ! لقد كان الفارس اللامع فارس القمر الفضى الذى هزم أشجع رجل وأنبل إنسان عرفته الدنيا ؛ كان هذا الفارس حلاقاً متنكراً ! » .

« لقد كان ذلك منذ عهد عهيد . ولقد ازدهرت منذ ذلك العهد[1] أربعة كثيرة جديدة ، ولكن كان ينقصها جميعاً أقوى أسباب فتنتها وجمالها ، لأننى وا أسفاه أصبحت لا أومن بخداع الهزار الذى يتملق الربيع ويطريه ، وإنى لأعلم أنه سرعان ما تذهب بشاشته . وفى كل مكان أرى فناءاً متنكراً مستخفياً » .

« وبرغم ذلك لا يزال قويًّا فى صدرى ذلك الحب المشتعل الذى تسامى

(١) أربعة جمع ربيع وهو أحد فصول السنة .

على الأرض فى حرارة وحماسة وبلغ السماء وتنقل فى أنحائها الشاسعة مرحاً طروباً ، ولما رأى النجوم غير حافلة به ارتد إلى الأرض الصغيرة واضطر إلى أن يعترف فى حسرة وانتصار بأن أجمل ما فى الخليقة كلها وأحسنه هو قلب الإنسان ، وهذا الحب هو الإلهام الذى يملأ شعاب نفسى ، وهو مقدس دائماً سواء أحسن الصنيع أو أساءه ؛ ولذا لم تذهب سدى الدموع التى أراقها الغلام الناشىء على أحزان الفارس الأبله ؛ كما لم تذهب سدى الدموع التى أراقها فى شبابه خلال الليالى الكثيرة وهو يقرأ عن مصارع أبطال الحرية المقدسين أجيس ملك إسبارطة وكايوس وتايبرياس جراكاس فى روما ويسوع فى أورشليم وروبسبير وسانت جست فى باريس ؛ والآن قد بلغت مبلغ الرجولة انقضى عهد إراقة الدموع ؛ وأصبح لزاماً على أن أعمل عمل الرجال مقتدياً بقدوة أسلافى العظماء ؛ وإذا شاء الله فى المستقبل فسيريق الأطفال والشبان الدموع من أجلى ؛ وفى هذا العصر الذى فترت حماسته أستطيع الاعتماد على هؤلاء الأطفال والشبان لأن النسمات التى تهب عليهم من الكتب القديمة مازالت تستوقد حماستهم ، ومن ثم يستطيعون أن يفهموا القلوب المشتعلة فى العصر الحاضر ، والشباب يتجرد فى تفكيره ومشاعره من الأثرة ولذلك يشعر بالحق شعوراً عميقاً ؛ ولا يضن بعطفه الجرىء فى المواقف التى تستدعى العطف ، والمتقدمون فى السن يؤثرون أنفسهم ، وآفاقهم الفكرية ضيقة ، وهم يفكرون فيما يعود على رأس مالهم من الأرباح أكثر مما يفكرون فى مصلحة الإنسانية . وهم يتركون زورقهم الصغير ينساب هادئاً فى مجرى الحياة ولا يحفلون فتيلا بالملاح الذى يصارع الأمواج فى البحر المكشوف الواسع ، أو يزحفون فى مثابرة وإصرار إلى أعالى منصب محافظ البلد ، أو رئاسة النادى الذى ينتسبون إليه ، ولا يعبأون بهؤلاء الشجعان الذين تقذف بهم العواصف من فوق أعمدة

الشهرة ، ثم يتحدثون بعد ذلك عن ماضى شبابهم وكيف أنهم كذلك ركبوا فيه رؤوسهم ونطحوا الحائط ، ولكنهم هادنوا الحائط بعد ذلك وصالحوه ، لأنهم عرفوا أن الحائط هو المطلق ، وهذا المطلق قد وجد بنفسه ولنفسه ، وأنه لما كان قد وجد فهو من ثم معقول ، والذى لا يحتمل هذا المطلق المعقول الذى لا مندوحة عنه يعد من غير العقلاء » .

ثم يوجه هينى الكلام إلى عبيد المصلحة ، وأنصار الرجعية ، ودعاة الحكم المطلق فيقول « ربما كنتم بعد كل شىء على حق ، وربما كنت أنا دون كيشوت ، وقد أحالت عقلى قراءة الكتب العجيبة كما أفسدت عقل فارس لا منشا ، والحقيقة أن جنونى والأفكار الغالبة على التى استنبطتها من الكتب تخالف جنون لا منشا والأفكار التى غلبت عليه ، فهو قد أراد أن يعيد عهد الفروسية الذى ذهب وانقضى ، أما أنا فعلى نقيض ذلك أريد أن أقضى على البقية الباقية من ذلك العهد ، ولذا يعمل كل منا بوجهة نظر مخالفة لوجهة نظر الآخر ، وقد كان زميلى يرى طواحين الهواء عمالقة وأنا خلافه أرى عمالقة هذا العصر مجرد طواحين هواء مزهوة متبجحة ، وكان يخال الحانات قلاعاً ، وساقة الحمير فرساناً ، ومومسات الزرائب من سيدات البلاط ، وأنا على عكسه أرى قلاعنا حانات ، وفرساننا ساقة حمير ، وسيدات بلاطنا مومسات زرائب عاديات ، ولكنى مثل فارس لا منشا أوجه إليها الضربات والطعنات ؛ ومثل هذه الأفعال وا أسفاه ينوبنى منها مثل ما نابه ، وأنا مثله ألقى ما ألقى فى سبيل الدفاع عن محبوبتى ، وإذا أنكرتها من الخوف أو بباعث حب الربح الوضيع فإنى حينذاك أستطيع أن أعيش عيشة راغدة فى هذا العالم القائم على العقل كما يعيش صغار العبيد ! ولكنى بدلا من ذلك أخوض غمار معارك كل منها تكلفنى دماء القلب ، وقد تحسبون ذلك أوهاماً مثل أوهام دون كيشوت ، ولكن الآلام المتوهمة توجع

كغيرها من الآلام» . .

ولكن هل كان هينى حقًّا مثل دون كيشوت مفتوناً بالمثل الأعلى ، مضحياً له بالراحة والسعادة ، مناضلاً من أجل الحرية ، ومجاهداً فى سبيل تقدم الإنسانية ؟ أما هو فيقول نعم ، ويوصى قائلاً[١] «إننى لا أعلم هل أستحق أن يوضع على كفنى يوماً إكليل الغار ، ولم يكن الشعر عندى — على حبى له — سوى لهو مقدس ، ولم أعلق قط أهمية كبيرة على الشهرة فى الشعر ، ولست أبالى أمدح الناس أشعارى أم عابوها ، ولكن ضعوا على كفنى سيفاً لأننى كنت جندياً جريئاً فى حرب الإنسانية» .

أما الناقد الإنجليزى الكبير ماثيو أرنولد فإنه يرى فى هينى غير هذا الرأى فهو يرى فى هينى غير ما رآه هينى فى نفسه إذ يقول عنه[٢] «لقد كان لهينى حظه الموفور من حب الشهرة ، وقد كان مثل سائر البشر يعنى بمدح الناس لأشعاره أو ذمهم لها ، ولم يكن سوى بطل صغير جداً ، وسيزين الجيل القادم قبره برمز إكليل الغار لا بشارة السيف» .

ثم يتبع هذا الرأى بقوله «لقد كانت له مكانته الملحوظة لأنه إن لم يكن قد تميز بالشجاعة فإنه كان مع ذلك جنديًّا لامعاً قوى الأثر فى حرب تحرير الإنسانية ، ويرى أرنولد أن هينى على اتساع ثقافته ولمعانه وعبقريته كان ينقصه الاتزان الأخلاقى ونبل الروح .

ولست أدرى هل انتقص أرنولد من بطولة هينى وعاب أخلاقه لأن هينى كان شديد الوطأة على الإنجليز أو أنها صراحة النقد وأمانته ودقة الوزن والتقدير

---

(١) صفحة ١٥٦ من الجزء الأول من كتاب أرنولد «فصول فى النقد» .

(٢) مقال أرنولد عن هينى من صفحة ١٥٦ إلى صفحة ١٩٣ الجزء الأول من كتابه «فصول فى النقد» .

وتحرى الصدق والصدع بالحق !

ومهما يكن من الأمر فإن مواهب هينى الأدبية وآثاره فى الاستنارة والتثقيف من وراء اختلاف الأفكار فى مواقفه السياسية وسلوكه الأخلاقى وفوق الريب والظنون .